زليخا

بقلم
الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب
الأستاذ المتفرغ بالكلية

للمرأة فى تاريخ الإنسانية مواقف يتناقلها الناس بالإكبار والإعجاب . أو الغرابة والدهشة . أو الزراية والاحتقار ، وقد تحدثت عنها أساطير الشعوب أحاديث كلها تقوم على الحدس والتخمين ، أو الرضا والغضب ، والبغض والكراهية . وبخاصة فيما يتصل بأصل نشأتها ، أو المادة التى كان منها أصل تكوينها . ولاحاجة بنا أن ننقلها إليك وهي بالخرافة والأسطورة أشبه منها بالحقائق العلمية . والقرآن الكريم أنبأنا — نحن المسلمين — أن الله قد خلقها من ضلع آدم « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » وكان هذا الضلع من الناحية التى فيها القلب . وكأن ذلك كان إيماء بأنها تحن إليه ، وتسكن قلبه ، وتستقر فى نفسه ، وهو أيضاً يكن لها من من الميل والرغبة ، والهوى والود ، والحب والعطف . ضرورة أنها بضعة منه ، وجزء انفصل عنه ، وإن كان حنينها هي إلى الرجل أكثر من حنين الرجل إليها على اعتبار أنها جزء منه ، وحنين الجزء إلى كله أكثر من حنين الكل إلى جزئه ، لأن الكل يمكن أن يستغنى عن الجزء لكن الجزء لايستغنى عن كله ... وهي على كل حال شغلت الرجل آماداً طويلة ، وأثرت فى حياته وتاريخه تأثيراً بينا ، وكثيراً ما كانت سبباً مباشراً فى انقلابات وسياسة ، وتحويلا لمجرى الأحداث ، ومهما قيل عن بعض أفرادها من العقل والاتزان ، والحكمة والرأي ، أو الكياسة والسياسة ، فإنها لاتنسى فى أشد المحن ، أو اضطراب الحوادث ، أنها إمرأة

وأن رغبات أنوثتها ، وواجبات جنسها ، هي كل شيء عندها ، وأن عليها أن تلبي داعيها ، وأن تجعل لها الأولوية كل الأولوية ، مهما كلفها ذلك كله من التضحيات ، وأنها إذا تقلدت عملا، أو وليت وظيفة، أو وصلت إلى مراكز الصدارة ، فإنها تبحث عن الرجل أولا ، وتطلبه قبل كل شيء ، لتكمل به حقيقتها وأن ترامها في أحضانه هو الغاية عندها، تحتقر في سبيلها الجاه والمنصب، والسيادة والقيادة ، ولا يمكن أن تتعالى على زوجها ، أو يدخل في نفسها أنها تحكمه ، وتسوس أمره ، وربما كانت « زليخا » أو إمرأة العزيز .

— كما سماها القرآن الكريم في سورة يوسف — صورة لهذه المرأة التي لم يمنعها من منصبها ، وإرتفاع مكانتها ، وعلو منزلتها ، أن تطلب الرجل ، متناسية أن الفوارق الإجتماعية ، والمساواة البعيدة بينها وبينه ، تقيم بينها وبينه السدود والحدود ، أو تجعل ذلك لا يصح أو لا يليق به أن يكون ، وتحردها على تلك الأوضاع ، وتناسيها لهذه الفوارق .

دليل لا يتسرب إليه الشك على أنها تلبي داعي الطبع ، وحقيقة الأنوثة ، ووجدان المرأة ، بصرف النظر هنا عن الحرام والحلال ، فإن للحرام والحلال فإن للحرام والحلال وجهه أخرى ، وحديثاً آخر ، فإن أحداً لا يجهل أن الشريعة الإسلامية جعلت لذلك أسلوباً من السلوك ، ونمطاً من الارتباط ، يلتقي على مقتضاه كل من الرجل والمرأة تلبيه لهذا الداعي الجنسي الذي أراد الله أن يقوم به العمران ، ويبقى به النوع ، وتصلح عليه الحياة ، وهذه القصة وإن كان ينظر إليها من ناحية كون المرأة أطاحت هنا بكبريائها ، وأرخصت كرامتها ، وباعت نفسها بثمن بخس ، في سبيل الطبع أو الغريزة .

إلا أن القرآن الكريم ربما نظر إليها من ناحية أخرى كثير من الناس يتورطون فيها ولا يلتفتون إليها ، في حين أنها جناية على المجتمع وعلى الأسرة في آن واحد .

وذلك حين يدخل إلى البيت عنصر غريب عنه ، أجنبي منه ، دخولا دائما ، لم تكن إقامته فيه لأجل ، ولا تحت حراسة رب البيت ، ثم يرخي له في العنان

ليتمكن تمكن أهله . ويطمئن اطمئنان أصحابه ، وهذا هو المعنى الذى تدور عليه أحداث هذه المرأة بعد استبعاد يوسف ورؤياه الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، وإلقاء أخوته له فى الجب .

ومجيئهم لأبيهم بقميصه وعليه دم كذب وقولهم « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما تبع ذلك من مفاجآت وأحداث . . . وأنت لا تشك فى أن إمرأة وشاباً فى مقتبل شابه ، ونضرة إيهابه ، وجمال ثيابه ، وكمال خلقه وفى بيت ليس معها فيه إلا الشيطان يصرخ بالفتنه ، وينادي المعصية . ويدعو إلى الجريمة . لا يكون منها إلا الشرور يتبادلانها ، والآثام يأتينها ، وليس هذا منا تصريحا بأن يوسف قد وقع فى الحبائل فان هذا ليس من هدف الحديث هنا ، إنما الهدف هنا عن هذه المرأة التى تحتل فى الشعب ـ حينئذ ـ هذه المكانه المرموقة ، والتى تقول لخادم بينها بكل قحة وجرأة ، « هيت لك » فلما باغتها زوجها تلبت الأوضاع ، وجعلت نفسها فى مكان المعتدى عليه « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سواء » إذا جعلت الارادة منه هو لامنها هى . . . ويظهر من سياق حديث هذه القصة أن الرجل لم يمكن من هؤلاء الذين تثور الغيرة ، أو تأخذهم الحمية ، بدليل أنه وقد ثبت له بشهادة الشاهد من أهلها أن الجريمة من صنعها لم يزد — مع برود طبعه ، وهدوء نفسه — على قوله « يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين — ولا يمكن أن يكون خير هذا كله قد ظل فى طى النسيان ، أو أنه لم يتطاير إلى المجالس والاندية ، ومن المعقول أن يكون قد تطاير لا محالة ، والذى يلفت أن الزوج — المحترم — قد وقف موقفاً سلبياً ولم يزد على قوله هذا « أعرض عن هذا واستغفري لذنبك » وكذلك الزوجة مع أدعائها لنفسها براءة الذمة ، وقد ظل الشاب فى موضعه من البيت يقوم بوظيفة الخادم ، وكأن زليخا كانت لا تزال تطمح — أو تطمع — فى أن تحقق رغبتها ولا يعنيها بحال من الأحوال حديث الذين يتحدثون عن قصتها هذه . وهنا نجد شيئاً واحدا يهز كيانها ، ويزلزل بنيانها ، وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، وكأن كل هذا الذي مضى لا يؤثر فيها

ولا يكدر صفوها ، ولا يصرخ صوته فى ضميرها ، وإذا كانوا يقولون امرأة صبت نفسها ، أو تارت رغبتها ، أو فعلت المنكر ، فليس هذا بشيء عندها ، لأن ذلك فى نظرها استجابة للطبع ، ونزولا على حكم الغريزة ، لـكن حين تنكر المرأة على المرأة ذلك وهى تعلم أن هذا ليس غريباً فى محيطهن يكون الاستنكار والدهش ، لذلك اهتمت زليخا الاهتمام كله أن تنكر امرأة على امرأة مثل هذا الصنيع . . . والواقع أن محل الاستنكار عند النسوة لم يكن منصباً على المبدأ وهو الوقوع فى جريمة الزنا ، أو مراودة امرأة لرجل ، وإنما كان ذلك منصباً على أمرين اثنين ، أولها أنه فتاها — خادمها — وفى ذلك نزول عن كبرياء الملك ، وعظمة السلطان ، وتقاليد السيادة ، والثانى فى بيتها الذى هو موضع المهابة ، وقاعدة الحكم ، ومكان الصون والحفظ ، لأنه بيت العزيز ، وفى مقابل ذلك كان عليها أن تقيم الدليل على أن لها العذر كل العذر فى ذلك لأنها لم تراود وشخصاً عادياً ، ولا إنساناً كيفما أتفق ، لتتوجه إليها تهمة الاسفاف فى الميل ، أو عدم الاختيار لتمثيل القصة . « فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيدهن وقلن حاشن الله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » . . . وفى هذا الموقف الذى وقفته من النسوة بدعوتها لهن ، ما يدل على أنها إنما كانت تريد أن تصحح لهن موقفها ، وأن تبرهن لهن ، على أن ذلك أمر لم يكن لها أن تغالبه وقد ظفرت بذلك ، وأخذت منهن الأعتراف بأن أحداً لا يستطيع أن يقاوم حسنه ، أو يفلت من شباكه ، وذلك إذ قلن . .

ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . وقد أغراها هـذا القول بأن تكشف برقع الحياء أكثر وأكثر ؛ وتعلن فجرها من غير خجل . « لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » والملاحظ هنا أن التهديد قد تكاملت له عناصر التخويف على أبلغ وجه . وذلك بكلمة «آمره كلمة ليسجن» وكلمة « من الصاغرين » ولا عليها من ذلك كله . ما دمن قد قدمن لها ما تعتمد

عليه « ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » وهو غزل واضح يدل على أنهن يشاركنها هذا الصنيع ، وأنهن لو أتيحت لهن الفرصة لفعلن مع يوسف مثلما فعلت هي . . والذى يدل عليه السياق فى هذه القصة .

— حين يتتبع القارىء السورة بعد ذلك — انها زجت به إلى غيابات السجن ، ولكن هل كان هذا لشفاء تخايل فى نفسها ، بالانتقام منه ، والكيد له ، أم أنه كان استمراراً فى المحاولة ، واسترسالا فى الضغط والقسر ، على أمل أن ينزل الفتى على سلطان الملك .

وسيادة الحكم ، ولم يدر بخلد هذه المسكينة أن ذلك منها إعلان أكثر وأكثر عن هذه الجريمة التى تلاحقها مهما حاولت أن تخفيها ، أو أن تكتم أمرها ومهما حاولت أن تفعل فعلها هذه الجملة التى أصدرها الحاكم الكبير فى الدولة « يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . . . ولكن ذلك كله لم يصرف الفتى عن وجهه . ولم يطامن من كبريائه . أو يذلل من اباته . وكانت هذه الكلمة إعلاناً لذلك المبدأ الذى التزم به .

وحمل نفسة عليه . على الرغم من ذل الخدمة . وحاجته إلى العمل الذى تتطلبه لقمة العيش .

« رب السجن إلى مما يدعونني اليه . . وإلى هنا تكون محاولة سيدة البيت قد باءت بالفشل ، ولا يجد التاريخ موقفاً كهذا الموقف الذي تنتصر فيه الفضيلة على الرزيلة . والخير على الشر ، والحق على الباطل ، والضعف على القوة ، مع المحاولة الغاشمة ، والقوة الظالمة ، وربما قد تكررت على مسرح الأحداث أمثال هذه المحاولة ، وجاءت الأيام والليالى بما يشبه هذه القصة ، لكن الستار فيها — فى النهاية — لم يسدل على مثل هذا الطهر من فتى كان له من شبابه العارم ، وحسنه الحالم ، وفرصته المتاحة ، ما يساعد على الانحدار ، ويعاونه على الاقتراف ، ثم ضرب بذلك كله عرض الحائط ، « قائلا « إنه ربى » . . . والبراعة فى هذه القصة أنها وهى جزء على قصة كاملة تضمنها سورة من سورة القرآن الكريم ، إلا أنها وهى جزء أستطاعت أن

تىون كلا ، ويمكن للكاتب القاص أن يجعل منها — وحدها — موضوعا قائماً بذاته ، له من جمال السرد ، وحسن التتابع ، وروعة المفاجأة ، ما يصلح لأن يكون قصة كبيرة يتحدى بها عمالقة الأدب ، وأساطين البيان ، وهكذا كانت القصة فى القرآن الكريم جديرة بما خلع عليها سبحانه وتعالى من الجلال والتقدير ، وهو يقول لنبيه صلى الله علية وسلم ، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ، و لا يمارى فى ذلك احد .

د / ابراهيم على أبو الخشب